الربيع العربي وحكاية انكسار أنظمة الرقابة والتحكم تحت وقع شبكات التواصل الاجتماعي

أ.د. هشام خباش



مجلة نقد وتنوير – مقاربات نقدية في التربية والمجتمع مجلة فكرية دورية محكمة – إصدار خاص – إبريل/ نيسان – 2015

http://edusocio.net

الربيع العربي وهكاية انكسار أنظمة الرقابة والتعكم تعت وقع شبكات التواصل الاجتماعي

بقلم – أ.د. هشام خباش

تقديم:

لقد صار من البين بذاته اليوم، أن للاعلام الاجتماعي، وبخاصة شبكات التواصل الاجتماعي وغرف الدردشة ومنتديات الويب، دور في بزوغ الربيع العربي على أرض الواقع، وفي يقظة المواطن العربي، لينخرط في مسيرة التحرر من أنظمة عربية ذات طابع شمولي واستبدادي، بعد أن ظل يعيش في كنفها ردحا من الزمن في وضعية المتفرج (Bystander). بينما بقيت بالمقابل، أجهزة رقابة تلك الأنظمة عاجزة عن التحكم في الانترنيت وآلياته 2 كما أكد على ذلك

⁻ أ.د. هشام خباش، أستاذ في كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس فاس، جامعة سيدي محمد بن عبد الله hichamcogn@gmail.com

بشارة. مما يجعلنا أمام سؤال يلقي بكامل ثقله على موضوع الدراسة، يمكن صياغته كالآتي: كيف ساهمت الشبكات الاجتماعية في تحول المواطن العربي من مواطن متفرج إلى مواطن مشارك في سيرورة (processus) التغيير هذه؟ ولماذا عجزت الأجهزة الأمنية للأنظمة الاستبدادية على التحكم في شبكة الانترنيت وما تحتويه (غرف الدردشة والشبكات التواصلية) أثناء مواجهتها للبوادر الربيع العربي؟

نؤكد في البداية أن المعطيات المعتمدة للإجابة عن هذه الأسئلة هي بالأساس معطيات الثنوجرافية، جزء منها مستمد من مجريات الثورة التونسية ومن حكايات التونسيين قبل وبعد الثورة. دون أن يفيد ذلك عدم انفتاحنا على بقية الثورات العربية، لكن بنوع من التحفظ والتروي، بالنظر لعدم وجود معطيات اثنوجرافية كافية بحوزتنا فيما يخص بقية البلدان العربية؛ إذ سبق لنا في المقابل زيارة تونس في مناسبات عدة والاطلاع على حياة الناس وهمومهم هناك. كما أن لثورة تونس نوعا من السحر الذي دعا بشارة إلى وصفها بالمجيدة. وذلك من حيث كونها قوضت نظاما استبداديا مركبا، تشكلت أسسه من بنيات سلطوية منظمة عكس ما هو عليه الحال في مصر في عهد مبارك والسادات حيث تم الاعتماد على منظومة سلطة غير منظمة.

لكن ما يهمنا في هذه المقدمة، معرفة كيف شكلت منتديات الويب ومواقع التواصل الاجتماعي وغرف الدردشة أدواتا داعمة للثورة؟ تدعونا منطلقات الجواب عن هذا السؤال إلى الوقوف عند عامل سيكولوجي أساسي يوفره الانترنيت لمستخدميه، والذي لا يجدونه في الواقع، هو عامل اللاكف (Disinhibition effect) . ومرد هذا العامل إلى قدرة مستخدم الشبكة العنكبوتية على إخفاء هويته عن أية رقابة خارجية. وهذا ما شجع نشطاء النت على الإفصاح عن أحلامهم وأمانيهم المتمثلة في العيش في مجتمع تسوده قيم الديمقراطية والعدالة الاجتماعية، دون هاجس الخوف من مواجهة رقابة النظام الحاكم.

لذا وقبل أن نعرج على عامل اللاكف وما يحتويه من آليات ساهمت في تمكين مستخدمي الأنترنيت من التحول من وضعية المواطن المتفرج إلى وضعية المواطن المشارك في تغيير مصيره ومصير وطنه. ثم إبراز، كيف ساهمت تلك الآليات في تقويض أنظمة الرقابة والتحكم لبعض الأنظمة العربية الاستبدادية إبان الربيع العربي. لا بد من الوقوف، بتركيز شديد، عند بعض الدراسات المرجعية لموضوع هذا البحث والتي من خلالها يمكن تحديد أهميته. لنبسط بعد ذلك بعض المعطيات الاثنوجرافية التي عرفتها منظومة المراقبة والتحكم التونسية بوصفها نموذجا في العالم العربي لنظام محكوم بنوع من السلطوية المنظمة 5.

نظرة حول الدراسات المرجعية في الموضوع:

لقد اهتمت عدد من الدراسات بالكشف عن دور عامل اللاكف في تمكين أعضاء غرف الدردشة الذين يعانون من الإحساس بالدونية، إما بسبب طبيعة مرضهم أو بالنظر لإعاقتهم الجسدية أو الذهنية أو لكونهم ينتمون لأقليات ثقافية أو بوصفهم مهاجرين جدد، من مواجهة وصم المجتمع لهم بتوصيفات بها ضرب من الازدراء في فمادام بإمكانهم إخفاء هويتهم يصبح تواصلهم عبر الانترنيت أكثر أريحية، مما يتيح لهم إمكانية البوح بمخاوفهم وهواجسهم وأفراحهم وحتى أسرارهم، دون إبداء أية مقاومة نفسية. إذ نجدهم في غرف الدردشة يتجاوزن إعاقاتهم في تعبيرهم عن مكنوناتهم الداخلية ومشاعرهم، وأكثر رغبة في الإفصاح عن ذاتهم، وفي أن يتعرف عليهم الآخر لا كحضور فيزيقي، وإنما كواقع نفسي داخلي، وما يحتويه من خبايا وأسرار ومعاناة. من هنا أخذت غرف الدردشة تلعب دور المحلل النفسي الذي من المكن أن نفصح له عن أمور ليس بمقدورنا أن نحكيها للآخرين. وبهذا يمكن القول إن حماية الانترنيت لمستخدميه بإخفاء هويتهم من أية رقابة خارجية، منح فضاء خاليا من المنوعات والمحرمات، انتفت فيه أية سلطة سياسية قهرية، وأية متابعة أخلاقية من طرف المجتمع لمستخدميه. الشيء الذي جعل ناشط النت يتصرف، عند عملية الدردشة، بعفوية وتلقائية قل لمستخدميه. الشيء الذي جعل ناشط النت يتصرف، عند عملية الدردشة، بعفوية وتلقائية قل لمستخدميه. الشيء الذي جعل ناشط النت يتصرف، عند عملية الدردشة، بعفوية وتلقائية قل

نظيرها في تصرفاته المعتادة، التي تظل رهينة حكم الآخر عليها. إذ نجده ملزما في إيقاع حياته اليومية، بضبط تصرفاته، واللجوء إلى فن التقنع والإضمار، لكي لا يصطدم بالرقيب سواء كان المجتمع بقيمه وتصوراته، أو كان النظام السياسي بآلياته القهرية⁷.

وتكمن أهمية موضوع دراستنا هذه، في كيفية اعتماد ناشط النت، إبان الربيع العربي، على عامل اللاكف وما يحتويه من آلية لإخفاء الهوية وغيرها من الآليات، لتجاوز أساليب الرقابة والتحكم للأنظمة العربية والتي يرزح تحت وطأتها. وهذا يعني، أن المقاربة المعتمدة في دراستنا هذه هي سوسيومعرفية بامتياز (Social cognitive approach)، تبتغي الكشف عن التغيرات الذي أحدثها الانترنيت ومرفقاته، في الحالات الذهنية والعاطفية لعدد من النشطاء، مما مكنهم من مواجهة أنظمة الرقابة والتحكم العربية. وبالتالي تختلف مقاربتنا هذه عن تلك المعتمدة من طرف كاستلز⁸، وإن كانت تنفتح عليها، والتي ركزت على عامل استقلالية الفعل التواصلي في الإعلام الاجتماعي ودوره في بزوغ قوى تأثير جديدة يصعب معها التحكم في الحركات الاحتجاجية وضبطها كما حدث في الربيع العربي.

تونس زمن ابن علي اثنوجرافية المراقبة والتحكم.

اثنوجرافية الرقابة اللصيقة:

بمجرد أن تطأ أقدامك أرض تونس ابن خلدون، لكن الزمن غير الزمن، فإن عباءة بن علي سرعان ما تلفك، عندها تحس أنك أمام نظام قد بذل جهدا معرفيا كبيرا، واستثمر إمكانيات لوجيستيكية هائلة، في مراقبة المواطنين ومتابعتهم في تفاصيل معيشهم اليومي. وعندما تحاول التعمق بنظرة الاثنوجرافي في حياة التونسيين ومعيشهم، فإنك تدرك أن جهاز بن علي للمراقبة والتحكم قد توفق بالفعل في توجيه مواقف المواطنين والتحكم فيها لتظل بمنأى عن السياسة. وأثمن نصيحة تقدم لك من صديق تونسي "برشا سياسة لا، إزي سياسة"، وإذا كنت تجالس أشخاصا في المقهى، وحدثتك نفسك بإثارة موضوعات تهم الشأن العام، فلن تلقى منهم سوى

الانسحاب من الجلسة الواحد تلو الآخر. ولأن الكلام في السياسة محرم، فإن هذا الحكم يستغرق أيضا السياسة الدولية. أما إن تكلمت كلاما نخبويا انفتحت فيه على بعض مفاهيم فوكو مثل المراقبة والعقاب، سلطة الخطاب... اعتبر ذلك إجراما وكلاما في السياسة. وبالتالي فأنت تدخل دائرة المغضوبين عليهم.

لقد ابتدأ تجوالي في حدائق وشوارع مدن تونس الخضراء من العاصمة إلى بنزرت وسوسة ... حتى مدينة الكاف الحدودية فكان ذلك إجمالا ممتعا، غير أن المتعة أفسدتها لافتات ولوائح رقمية تمجد التحول الكبير الذي عرفته تونس في 7 نوفمبر فغطت على الزينة والجمال الحقيقي، مدعومة بصور ضخمة لابن على بما يوحى بمراقبة الزعيم لكل شيء وإحاطته علما بكل كبيرة وصغيرة في الحياة اليومية للتونسيين. وإن أنت أردت تصفح الجرائد الوطنية، في أحد الأكشاك، على قلتها، فستجد أن مضامينها لا تخرج عن تمجيد حدث 7 نوفمبر وأخبار المشاهير والنجوم أو زوايا تخصص للتنجيم والأبراج. ربما من خلالها يتعرف المواطن طالعه اليوم هل سيصطدم بعون أمن أم بالمواطن الرقيب أم بأحد أعضاء الحزب الحاكم أم بشبيبته. هكذا وبناء على ما تحمله الصحافة من مضامين بائسة نفهم لم رتب بن على سنة 1998 من بين عشر الرؤساء الدول المعاديين للصحافة. ولم طردت جمعية مديري الصحف التونسية من الجمعية العالمية لمديري الصحف سنة 1997، وجمدت عضوية الجمعية التونسية للصحافيين في الفيدرالية الدولية للصحافيين 2004. وفيما يخص الرقابة الفيزيقية، فلا يخفى على أحد أنه ما بين 1998 و 2004 قد بلغ عدد معاوني الأمن ما يربو عن 136 ألف أي بنسبة معاون أمن لكل 60 مواطن، زد على ذلك لجن اليقظة المكونة من شعب الحزب الحاكم وشبيبته ، والتى مهمتها رفع تقارير يومية لقيادة الحزب التي توجه للديوان الرئاسي مباشرة ⁹... وأخيرا في سنة 1997، نجد قرارا رئاسيا فريدا، مضمونه إحداث مهنة لا نظامية، ولكن مؤثرة وذات نفوذ، أطلق عليها اسم المواطن الرقيب، والغاية حسب نص القرار تمكين المواطنين من إبلاغ شكواهم لهذا المواطن الرقيب، الذي يخول له الاتصال بأعلى سلطة في البلاد لرفع

المظلمة. لكن ما خفي كان أعظم، حيث مكن هذا المنصب من تشديد الخناق على الناس ومراقبتهم ومتابعتهم حتى في حركاتهم وسكناتهم وتأوهاتهم. ليصبح بذلك منصب المواطن الرقيب يعني لدى الناس شخصا نافذا عليهم احترامه والولاء له، والنزول عند رغباته، لكي لا يكون مصريهم مصير 40 ألف مواطن الذين اعتقلوا وعذبوا بين 1990 و2004، وآلاف المعارضين الذين يعيشون في المنفى، أو لكي لا يكون مصيرهم مصير من فقدوا الحق في الحصول على وثيقة إدارية أو منحة دراسية أو وظيفة رغم استيفاء الشروط المطلوبة وهى أرحم الحالات¹⁰.

إضافة لما سبق، أصبح الشغل الشاغل لدى الجمارك محكوما بهاجس منع الكتب. بحيث أصبح المنع يشمل، أحيانا، كتابا تعذر على الجمركي فهم عنوانه. وبهذا الصدد، قد منع الأمن الداخلي 31 كتابا من التوزيع بين 1995 و2004، كما رفضت السلطات منح أعداد من المثقفين تأشيرة إصدار مجلات فكرية. وأصبحت الحريات الأكاديمية بدورها عرضة للرقابة اللصيقة، فبتاريخ 25 فبراير 1997 قدمت توجيهات لعمداء ومديري المعاهد العليا بضرورة إعلام وزارة الداخلية بأية تظاهرة علمية قد ينظمونها، مع مدها بقائمة المشاركين ونص مداخلاتهم 1.

كما أن ما يسترعي انتباه المتجول في شوارع مدن تونس، كونها حبلى بما يشهد على قوة ونفاذ وتعالي مركز الزعيم، إذ تستوقفك عدد من الحافلات وقد كتب عليها هدية رئيس الجمهورية لشباب تونس. وعندما تبدأ عملية الاستقصاء الاثنوجرافي، تجد أن تلك الحافلات هي هدية لشبيبة الحزب الحاكم، من ميزانية الدولة للمشاركة في الملتقيات والتكوينات والمخيمات الصيفية. هذا غيض من فيض من نعم بن علي إذا ما التحقت بالحزب الحاكم. حيث إن حيازة بطاقة الحزب تكفي لتلج فئة المحميين. فهي ستحميك من المتابعة اللصيقة للأمن، وحتى إذا خرقت قانون السير، مثلا، فسيتم التجاوز عنك، ومن المكن أن تحصل على إعفاء ضريبي أو على وظيفة. لكنك بالمقابل تكون مطالبا بحضور تكوينات وتربصات الحزب.

وما دام بن على قد أفرغ الحزب الذي ورثه عن بورقيبة من أي تصور إيديولوجي ومن أدبياته، فمضمون التكوينات هي خطابات الزعيم المفدى التي ألقاها في المناسبات الوطنية والدولية (اليوم العالمي للمرأة، اليوم العالمي للبيئة...) وبيانات الحزب التي تمجد صندوق 21/21 وبنك التضامن، وتبجل اقتصاد تونس. ومن هنا يطلب من أي عضو في التجمع الدستوري أو من شبيبته، الدعاية بشكل مستمر لدى مختلف أوساط المجتمع ليس للحزب، بل للزعيم، والتهليل للمعجزة الاقتصادية التونسية وقوتها الصاعدة باعتبارها نمرا لشمال إفريقيا زمن بن على. ولتسويق صورة تونس القوية كأنموذج فئة للتنمية الاقتصادية الناجحة، والتي على جميع بلدان المغرب العربي وإفريقيا التمركز حولهاProtocentrism¹² والاقتداء بها. قام النظام بطرد مجموعة من المغاربة سنة 1995 بمن فيهم السياح، تحت ذريعة أنهم أتوا لمنازعة التونسيين رفولهم في رغد العيش في ظل القيادة الرشيدة للزعيم بن على. والجدير بالذكر هنا أن ترقية أي عضو في مرتبته الحزبية، وفقا لمنطق تراتبي شبه عسكري، تبقى رهينة بمدى قدرته على إظهار إخلاصه ووفائه لابن على وقدرته على الحجاج والإقناع بسياساته غير المشروعة. ففي إحدى زياراتي لتونس، كان لي نقاش مع أحد التجمعيين الشباب فألمحت إلى أن بن على، حتى وإن افترضنا جدلا أنه قد نجح في تنمية تونس، فلا يجوز له، أن يبقى في الحكم لولاية رابعة؟ فأجابني بنفس إجابة "هوبس" المعتمدة من طرف عدد من الدكتاتوريات العربية، بأن تونس موزعة إلى جهات متنافسة فيما بينها، وبالتالي غياب بن على يعنى صراع بين الجهات على السلطة، مما يجعل بقاءه حصنا حاميا للبلاد والعباد من السقوط في حالة فوضى. من هنا نفهم كيف اعتمد بن على الحزب وشبيبته لتدجين الشعب لتقبل ولاية رابعة. ذاك التدجين الذي يظل واضحا للعيان في عدد من المقاهى والمحلات التجارية، حيث تجد يافطات ولوحات قد كتب عليها تجار الحي فلان يبايعون سيادة الرئيس لولاية رابعة.

المفارقة الاثنوجرافية في الرقابة المعلوماتية:

يتضح مما سبق من الشواهد كون نظام بن على هو من بين أعتد الأنظمة في الاستخبار والتجسس على الهواتف والفاكس والانترنيت. لكن المفارقة كونه من بين الأنظمة الأولى في المنطقة التي شجعت استعمال الانترنيت، ففي صيف سنة 1997 قام الحزب الحاكم بناء على توجيه رئاسي بحملات واسعة النطاق في مدن أحيانا صغيرة ومهمشة مثل مدينة الكاف، لتدريب الشباب على أدبيات الانترنيت. وكانت لغاية قيام الحزب باستقطاب حاد للشباب تأكيدا على أن عهد بن على هو عهد المعرفة الحديثة. وكانت بداية انخراط النظام في عملية تعميم الأجهزة الإعلامية على فئات عريضة من المجتمع وتخفيض تكلفة الانترنيت على المواطنين. وإن كان ذلك يتم ضمن إطار سياسة توزيع الغنائم على أفراد العائلة، حيث كان نصيب إحدى بنات بن على قطاع الانترنيت والأجهزة الإعلامية 13. ولكن ما يدهشنا حقا، تلك المفارقة بين تشجيع النظام للانترنيت وكيف كان هذا الانترنيت أحد أسباب زواله. فهل نحن هنا أمام مكر التاريخ؟ عبارة استعارها بشارة من هيغل لوصف هذه المفارقة¹⁴. يبدو أن التشجيع المبكر للأنترنيت مرده إلى رغبة النظام في خدمة مظهره الحداثي التي كان ينزع دائما للظهور به أمام الغرب، وكذلك عدم إدراكه بعد مدى خطورته عليه. كما أن الفكرة التي كانت سائدة في التسعينات لدى النخب المقربة من بن على، أساسها تصور للفيلسوف بودريار كان شائعا في فرنسا، مفاده: أن الانترنيت عبر غرف الدردشة والإبحار بين المواقع سيعزل مريديه عن الواقع ويجعلهم مخدرين وسجيني عالم السيمولاكر. وهو عالم ذهاني تخيلي مؤثث بأحلام اليقظة التي تشكل متنفسا هياميا، خاصة، لدى الافراد العاجزين عن تحقيق أمانيهم على أرض الواقع 15 . لكن مع انتشار النت وبداية خلقه لجملة من المشاكل للنظام الحاكم (قدرة المعارضين على نشر بياناتهم على الويب، النشر الرقمي للكتب الممنوعة، تشكل غرف للدردشة وصفحات على الفايسبوك والتويتر ولقطات في اليوتوب تفضح النظام وعائلته) بدأت عملية ممنهجة لمراقبته والتحكم فيه. حيث سجلت منظمة مراسلون بلا حدود كون الوكالة الحكومية للانترنيت تفرض رقابة مشددة على الشبكة اعتمادا على برامج متخصصة ومتقدمة في ميدان الرقابة. والتي يخولها

بمقتضى قانون البريد التقاط الرسائل الالكترونية وتدميرها في حالة إذا ما شكلت إخلالا بالنظام العام. كما تم تحميل المسؤولية القانونية لمتصرفي مقاهى الانترنيت بالسماح أو عدم التبليغ عن تردد الزبائن على المواقع المحظورة. إذ يطلب من الزبون تزويد صاحب مقهى الانترنيت ببطاقة تعريفه وتاريخه زيارته. فمنذ 2009 طلبت الوكالة التونسية للأنترنيت تزويد حواسب أصحاب المقاهى ببرنامج (Publisoft) الذي يعاين ويسجل بالتفصيل المواقع التي زارها رواد هذه المقاهي. كما أقام النظام برامج لرقابة وتصفية عدد من المواقع ومنها اليوتيوب وموقع راديو كندا، wat.tv ، Dailymotion وموقع Flickr وموقع منظمات الحقوقية، من قبيل Amnesty وRSF ومواقع مجلات سياسية أجنبية مثل (Le libération، nouvel Observateur). حيث كلما حاول المستخدم النفاذ إلى أحد المواقع الممنوعة أطلت عليه إشارة الخطإ تفيد أن الصفحة غير موجودة، أولا يمكن النفاذ إليها "أعد لاحقا". ويظهر أحيانا رقم الخطأ 404، مما يفيد كون الموقع ممنوعا. الشيء الذي دعا الشارع التونسى من خلال سخريته المعهودة إلى تسمية عملية حجب الموقع باسم شخص "عمار 404". ومن بين البرامج التي اعتمدها النظام للمراقبة والتحكم في الانترنيت، برنامج الانتقاء حسب الكلمة الأساسية والذي يجوب الشبكة باحثا عن المواقع التى تتضمن الكلمات الأساسية التي يعتبرها النظام مشبوهة (مثل الدكتاتورية في تونس، حرية التعبير في تونس) ليقوم، بعد ذلك، بتفحص تلك المواقع وحجبها أو تدميرها إذا ما وجدها مخالفة للنظام16. كما لجأ النظام إلى تقنية القنص الرقمي (Phishing)، أي سرقة المعلومات الشخصية للمعارضين عن طريق قرصنة بريدهم الالكتروني واستخدامها ضدهم. وللإشارة فقد قامت شرطة النت بحملة واسعة لقرصنة الأرقام السرية لحسابات الفايسبوك لعدد كبير من المنخرطين مما أدى إلى تدخل مباشر لإدارة الفايسبوك، ومساعدة مستخدمي النت التونسيون ومنحهم برامجا للحماية¹⁷.

خلاصة القول، أن تونس زمن بن علي هي دولة أمنية بامتياز، وأن المتتبع للشأن التونسي بشكل خاص والشأن العربي بشكل عام، يرى أن كل المؤشرات تسير في اتجاه الاقرار باستحالة

قيام ثورة في تونس. فالمواطنون كانوا موزعين فيما بين أغلبية لا حول ولا قوة لها، تتفرج على ما يحدث وبين أقلية موالية للنظام ومعارضة في طور الانقراض. لكن على الرغم من ذلك حدث التحول غير المتوقع؟

والسؤال الذي يطرح نفسه هو كيف ساهمت الشبكة العنكبوتية في هذا التحول؟ وكيف انكسرت أعتى أنظمة الرقابة والتحكم أمام غرف الدردشة الرقمية وشبكات التواصل الاجتماعي؟

الربيع العربي ومحدودية أنظمة الرقابة والتحكم أمام الشبكات الاجتماعية وغرف الدردشة:

تؤكد جملة من المعطيات الإحصائية على أن الاعلام الاجتماعي كان حاضرا في السنوات الأخيرة وبقوة في حياة مواطنى بلدان الربيع العربي. فقد بلغ مستخدمي الهاتف الجوال في تونس سنة 2009: 95.38 % من مجموع السكان، في حين بلغت نسبة المشاركين في الانترنيت 34.07% في نفس السنة. أما في سنة 2011 فقد بلغ مستخدمي الفايس بوك 28,9 % من مجموع السكان. إذ الملاحظ أن منحنى أعداد مستخدمي الفايس بوك ظل في ازدياد مطرد سنة بعد أخرى. ففي 2008 تم تسجيل حوالي 16000 تونسى مشارك في الفايس بوك ليصل إلى 180000 في يناير 2011. ووصلت نسبة الشباب التونسي مستخدمي الفايس بوك، بين 15 و29 سنة، إلى ما يقرب75% من المجموع العام للمستخدمين. وهي نسبة تتماشى وارتفاع اعداد الشباب العربي المستخدم للفايسبوك والتي بلغت 70 %. أما نسبة التونسيات المستخدمات للفايس بوك فقد بلغت 42 % من مجموع المستخدمين. وننوه بهذا الصدد إلى أن نسبة الولوج إلى صفحات الفايس بوك في الأيام الأولى للثورة التونسية بلغت من مجموع السكان. وبهذا تم تسجيل ارتفاعا في أعدد مستخدمي الفايس بوك من 18.810 % سنة 2010 إلى 18% سنة 2011 وذلك مع بداية الحراك الشعبي. كما أن حجم التغريدات على التويتر وبخاصة المتضمنة لكلمة سيدي بوزيد ارتفعت بشكل ملحوظ لدى

التونسيين في محطتين رئيسيتين، الأولى في بداية الحراك الشعبي في 14 جنفي 2011 والثانية في 27 فبراير أثناء تعيين رئيس التونسي المؤقت لرئيس وزراء جديد¹⁸.

وفي مصر، سنة 2009، بلغ عدد المشتركين في الهواتف الجوالة 66.69٪، وبلغ عدد مستخدمي الانترنيت 24.26 ٪، ووصلت نسبة انتشار الفايس بوك سنة 2011: 7.66 ٪ وتمثل هذه النسبة حوالى سبع ملايين مشترك في الفايس بوك يشكل فيها الشباب نسبة معتبرة ناهزت 75%، أما نسبة النساء فلم تتجاوز 36 ٪. كما لا يفوتنا استدعاء بهذا الصدد معطيات إحصائية تفيد التصاعد الدال في منحنى اعداد المصريين مستخدمي الفايس بوك من 822560 في 2008 إلى خمسة ملايين عشية الثورة وإلى أكثر من 9.3 ملايين في بداية 2012. وتأكيدا على الترابط القائم بين شبكات التواصل الاجتماعي والاهتمام بالفعل السياسي، فقد ارتفع عدد مستخدمي الفايسبوك أثناء الثورة من 12% إلى 29%، كما ارتفعت أعداد تغريدات التويتر بشكل ملحوظ لدى المصريين تزامنا مع حدثين سياسيين، الأول في $14\,$ يناير والذي اقترن بارتفاع وثيرة الاحتجاجات الشعبية في تونس والثانية في 11 فبراير أثناء تنحي مبارك عن الحكم. وفي دراسة ميدانية، وزع فيها استبيانا على 126 مستخدم للفايسبوك من مصر و105 من تونس. وفي كلا البلدين ذهب المستجوبون، بنسب معتبرة، إلى أن الموقع استخدم أساسا لرفع مستوى الوعى في بلدانهم بأهمية الاحتجاجات الشعبية 31% في كل من تونس ومصر على التوالي). ونشر المعلومات إلى العالم بشأن الحركات الاحتجاجية (33% و24 % في تونس ومصر على التوالي). والتنسيق بين الناشطين وتنظيم التحركات (22% و30 % في تونس ومصر على التوالى). بينما رأى أقل من 15 % في كلا البلدين أن الفايسبوك كان يستخدم بشكل أساسى للتسلية أو لأغراض اجتماعية 19.

على الرغم من كون المعطيات الإحصائية السابقة الذكر، تفيد بوجود تعالق واضح المعالم بين الاهتمام بالشأن السياسي واستخدام مواقع التواصل الاجتماعي. فإننا نعتقد، عكس ما اتجهت

إليه بعض الدراسات، أنه من الصعوبة بمكان تحديد طبيعة العلاقة بين الانترنيت والربيع العربي من خلال معطيات كمية فقط والجزم بالقول، مثلا ما دامت أعداد مستخدمي الفايسبوك منخفضة نسبيا في مصر مقارنة بعدد سكانها، فهذا يعنى أن شبكات التواصل الاجتماعي لا تشكل عاملا مؤثرا على الحراك الشعبي. ونرى بالمقابل، من جهتنا، أن ما يجب وضعه في الاعتبار هو أن الشخص المستخدم لشبكات التواصل الاجتماعية يرتبط بدوائر من العلاقات الاجتماعية (أسرية، حزبية، مهنية، مجتمع مدنى) فيكون حاملا يوصل إليها عددا من المعلومات عبر وسائط التواصل التقليدية، وبهذا فهو يمثل نوعا من الصحافة غير النظامية. ولا أدل على قوة تأثير الانترنيت على سلوك المواطنين السياسي موقف أنظمة الرقابة العربية الملتبس منه. فمن بين أهم الاحداث التي عرفها التونسيون في تاريخهم المعاصر رفع النظام التونسي الرقابة بالكامل على الانترنيت في مساء يوم 13 كانون الأول/ كانون الثاني 2011بناء على خطبة بن على المشهورة "أنا فهمتكم"، ومن بين ما تضمنته هذه الخطبة إلغاء عملية منع عدد من المواقع مثل اليوتيوب. وبعد ذلك، يأتى حدث رحيل بن على، ليدرك الجميع أن الثورة قد انتصرت، الشيء الذي سيمنح نوعا من الدعم النفسي للشارع في عدد من أقطار العالم العربي للتحرك من أجل التغيير، ويكون رد فعل الأنظمة على هذا الحراك ملتبسا، بين الحجب ورفع الحظر على الانترنيت والهاتف الجوال. فقد استمرت عملية قطع الاتصال بشبكة الانترنيت خمسة أيام في مصر من 28 يناير حتى 2 فبراير. بينما في ليبيا، بدأ هناك انخفاض في صبيب الاتصال بالأنترنيت في 20 فبراير 2011. في حين، قامت الحكومة السورية برفع الحظر على مواقع الاعلام الاجتماعي في السابع من فبراير. فشهدت حركة استخدام موقع يوتوب وغيرها من مواقع الاعلام الاجتماعي الأخرى ارتفاعا ملحوظا. بينما أنشأ المجلس العسكري المصري صفحات على الفيسبوك ليخطب ود نشطاء النت²⁰.

تظهر المعطيات السابقة الذكر مدى ارتباك الأنظمة العربية في تعاملها مع الانترنيت ورهبتها منه. وينم هذا الارتباك عن محدودية أساليبها الرقابية لحصر تأثيراته على الشارع العربي.

وللتذكير فالشبكة العنكبوتية تتضمن "العامل اللاكفي" الذي يحتوي على جملة من الخصائص التي مكنت نشطاء النت من تجاوز آليات الرقابة والضبط للأنظمة الاستبدادية والمرور إلى الفعل الذي وجد تحققه في إسقاط النظام. ونعرض لهذه الخصائص كما يلي:

خاصية إخفاء الهوية:

إن عدم كشف عدد من النشطاء إبان الربيع العربي عن هويتهم، ومنهم وائل غنيم الذي دعا إلى تنظيم على الفاسبوك عددا من المظاهرات الجريئة في صيف وخريف 2010، ودعا المواطنين للتظاهر بكثافة يوم 25 يناير 2011، حيث وصل عدد المشاركين عشية الثورة 38000 فردا21. يجعلنا نقف عند إمكانية إخفاء الهوية التي يتيحها لنا الانترنيت بمختلف عناصره (غرف الدردشة ومواقع التواصل الاجتماعي) لتجاوز رقابة الأنظمة الحاكمة. ففي غرف الدردشة، وحتى في مواقع التواصل الاجتماعي، ليس من الضروري أن يكشف الفرد عن بطاقة هويته الشخصية، ولكن الأهم أن يتعاون مع الآخرين ويعبر عن مكنوناته الداخلية بكل أريحية 22. ومن هنا عندما يجد الفرد نفسه قادرا على إخفاء هويته الشخصية وحمايتها باستخدامه، اسما مستعارا، أثناء حواره مع الآخرين، فإنه سيلغى أية مقاومة نفسية ليتحرر في تعبيره، مفسحا المجال للبوح الصريح عن مكبوتاته ومعاناته ومواقفه، والتي كثيرا ما يتحفظ عن البوح بها في حياته اليومية. إن هذا الاطمئنان الذي يسكن الإنسان في غرف الدردشة، والذي يشجعه على قول كل شيء والحديث عن أي شيء، يرجع إلى إدراكه بأن الآخرين ما داموا يجهلون اسمه وهويته الحقيقية، فسيكونون عاجزين عن استغلال ما عبر عنه من مواقف تجاه النظام القائم ضده في يوم ما. فكل ما قاله سيظل حبيس جدران الغرفة الرقمية. ولهذا لن يكون ضحية وشاية مواطن رقيب أو عون أمن. كما أن اعتماد مجموعة من الاستعارات والصيغ المجازية للإشارة للنظام القائم ومعاونيه في المدونات الرقمية وفي الشبكات الاجتماعية يمكن

المدون من الانفلات من نظام المراقبة الرقمي القائم على برنامج انتقاء الكلمات (كأن يعوض اسم بن علي بالقرصان، حاكم قرطاج، الزين...).

ونود أن ننوه هنا، أن نشطاء النت التونسيين، قد اعتمدوا على تقنية بروكسي؟ "لإخفاء هويتهم الرقمية IP، وقد سألت مدونة تونسية عن "ماذا تعني لها كلمة بروكسي؟" فأجابت بما يلي "برنامج رقمي يمكنني من أتخفى من شرطة مراقبة النت، كي لا يتمكنوا من تحديد موقعي". ويبقى برنامج Hotspot Shield وTCP optimiser من بين أهم برامج بروكسي التي اعتمدها التونسيون من أجل تمويه نظام الرقابة وتحسين عملية النفاذ إلى شبكة النت. وبحسب إحصائيات جوجل تم الكشف عن أن كلمة بروكسي هي من بين أكثر الكلمات التي بحث عليها التونسيون أيام الثورة²³.

وتبقى أهمية مبدأ إخفاء الهوية لا تنحصر في اتقاء الفرد شر الأنظمة الاستبدادية القائمة، وإنما في امتلاكه جرأة تعبير عن مواقفه. فهو في حياته اليومية محكوم بهاجس الربح والخسارة ومتوجس من التعبير عن قناعته الحقيقية اتجاه موضوع ما بقول الصراحة، خوفا من أن يؤدي به ذلك، مثلا، إلى فقدانه لصديق: "لم أصارحه بخطئه، خوفا من أن أفقده" أو إلى فقدان مركزه داخل جماعة الانتماء "لا يمكنني أن أتخذ موقفا بهذا الشكل لأنه مخالف لتوجه حزبي وأنا شخص مسؤول داخل الحزب"، أو إلى أن ينظر إليه أنه موضوع استقطاب "أتود أن أتبنى موقف الاسلاميين حول الموضوع كذا لأحسب عليهم". لكن ما دامت غرفة الدردشة تضمن لأعضائها إمكانية إخفاء الهوية، فليس هناك اعتبار لجماعة الانتماء وليس هناك خوف من عملية الاستقطاب أو من فقدان صديق. لأن المهم هو مدى تمكن الفرد من التعبير عن وجهة نظره الشخصية، وإفراغ ما في جعبته دون مراعاة حكم الآخر عليه، فالآخر وإن أصدر حوله حكما سلبيا فهو أصلا يجهل هويته 2. بمعنى أدق يتمثل الفرق بين الحوار في الواقع اليومي وبين نظيره في غرف الدردشة في أن رهان محادثاتنا في الواقع اليومي هو رضى الآخرين عنا، بينما نظيره في غرف الدردشة في أن رهان محادثاتنا في الواقع اليومي هو رضى الآخرين عنا، بينما

يبقى الرهان الأساسي في غرف الدردشة أن نرضى نحن على ذواتنا. وقد تأخذ البعض، في غرف الدردشة، الرغبة في ارضاء ذواتهم دون الاكتراث بالآخر إلى حد استخدامهم لعبارات نابية وسوقية وغير محتشمة، رغم انتمائهم لمراكز اجتماعية مرموقة (محامون، مهندسون...)²⁵. وبهذا تسمح تلك الغرف لأعضائها بتفريغ مكبوتات لا يستطيعون البوح بها في حياتهم اليومية. بحيث تجد الإشارة هنا إلى مدونة تكراز التي كان اصحابها معارضين لنظام بن علي، ومشاركين فعلين في الثورة التونسية. وقد استخدموا لذاك الغرض عبارات سوقية تخل بالحياء، ومبرراتها في ذلك أن يبقوا قريبين من لغة الشارع التونسي²⁶.

غير أن ما يهمنا أكثر في اعتماد غرف الدردشة على مبدأ إخفاء الهوية، كوننا لا نأبه بخلفية المحاور السياسية هل هو إسلامي ماركسي أم ليبرالي... وإنما نهتم أكثر بمدى فهمه وتفهمه لموقفنا حول موضوع ما. وعليه، نعتقد أن عملية تحييد الانتماء السياسي في غرف الدردشة وفي شبكات التواصل الاجتماعي، شكلت عاملا مهما مكن شبابا من أطياف سياسية مختلفة في تونس ومصر واليمن من التوحد في نفس صفحات الفايس بوك، ليطرحوا بكل شجاعة سؤالا مصيريا يؤرقهم وهو كيف نسقط النظام؟

إلى جانب كون الأسلوب المعتمد في غرف الدردشة لمعرفة الآخر، يختلف عن الطرائق التي اعتدنا سلوكها في حياتنا اليومية للتعرف عليه. فما دامت هويتنا في حياتنا اليومية مكشوفة، فإننا نعتمد على استراتيجيتين، الأولى تسمى باستراتيجية التنظير الحدسي (theory)، وهي استراتيجية سوسيومعرفية مركبة تتطلب مجهودا معرفيا كبيرا، والتي تنبني على صياغة فرضية حول الشخص المستهدف "هل هو مثلا شخص نزيه ومصدر الثقة أم لا" والتحقق من مدى صدقها على أرض الواقع من خلال معاشرة ذاك الشخص وبعد ذلك تعميمها على أشخاص آخرين يشاركونه عددا من الخصائص ويتم اعتمادها بعد ذلك كقانون للتوقع فمثلا : "ما دام إسلاميا فيمكن الوثوق به، لأنه سبق لى أن عاشرت عددا من الإسلامين فكانوا

جميعا مصدر ثقة". والثانية، هي استراتيجية الازدراء (Derogatory strategy)، والتي تعتمد على الإشاعة والوصم والأحكام الجاهزة والقوالب لتعريف الآخر وهي لا تتطلب مجهودا معرفيا كبيرا "إنه خوانجي إنه ظلامي لا يمكنني أن أصافحه". بينما في غرف الدردشة وعلى شبكات التواصل الاجتماعي، ما دامت هوية الأنا وهوية الآخر تظلان خفيتين ومادام لديهما الحق في التعبير عن حديقتهما السرية وعن معاناتهما العميقة والمشتركة من الوضع القائم دون الإحساس بالذنب أو بالدونية " أنا لا أحس بأنى أخون وطنى عندما أنتقد الوضع القائم على النت" على حد تعبير أحد المدونين التونسيين أو دون الخوف من التعرض للتهكم بحسب آخر، فإن الاستراتيجية الوحيدة الفعالة بهذا الصدد هي استراتيجية التقييس(theory simulation)، ومضمونها أن أحاول فهم معاناة الآخر من خلال معاناتي الشخصية وأن أضع مكانى مكانه واعتبر حالاته الذهنية والعاطفية جزءا من معيشى النفسى. بتعبير أدق، نحن هنا أمام ضرب من التفاعل مع الآخر الذي ينتهى إلى مستوى التعاطف معه والتأثر بوضعه 27. لكن بسبب تلقائية مضامين الرسائل الرقمية وعدم نمطيتها وتضمنها عبارات عاطفية وانفعالية واعتمادها على اللهجات المحلية أحيانا، وتضمنها لوقائع يتم الإدلاء بها من المصدر الأصل، أي من الشخص الذي عاش تلك الوقائع ، وتعزيزها بمشاهد قوية تبثها قنوات فضائية مؤثرة " قناة الجزيرة نموذجا". يتحول أعضاء غرفة الدردشة أو شبكة التواصل الاجتماعي من مستوى التعاطف مع الآخر إلى مستوى تقمص حالاته الذهنية والعاطفية، بمعنى أن الآخر يصبح أنا، وهذا يبدو جليا، في حالة البوعزيزي، حيث نجد في مدونات بعض الناشطين التونسيين عبارة سنحرق أنفسنا مثل البوعزيزي، أو في مدونات بعض المصريين شعار: كلنا خالد سعيد. ومعلوم 8 أن عدد الذين زاروا صفحة الفايسبوك كلنا خالد سعيد قد بلغ 2.5 مليون شخصا يوم ديسمبر 2012. وفيما يخص حالة البوعزيزي قام النشطاء التونسيين بإحداث مدونة عنوانها "السيد الرئيس، التونسيون يحترقون جميعا بالنار" وقد وصل عدد الداعمين لهذه المدونة حوالي 100000مساندا، وكلما قام النظام بحجبها، عمل النشطاء بشكل متكرر ودؤوب على تغير أحد

أحرف اسمها على الانترنيت أو إضافة رقم جديد لعنوانها ونشرها من جديد. وهذا إن دل على شيء فهو يدل على مدى إصرار هؤلاء النشطاء على مواقفهم وتمسكهم بها²⁸.

لكن لا بد أن ننبه إلى أن الصور والعبارات التي نقلتها هذه المدونات ومواقع التواصل الاجتماعي وقنوات إخبارية فضائية كان لها دور في نقل بعض الأفراد من مستوى التعاطف إلى مستوى التقمص. إذ تم تسجيل ما يقرب عن 63 حالة في الوطن العربي وعمول عرفت ما يسمى في علم النفس الاجتماعي بالتصرف المعدي 30، والذي يتمثل في قيام تلك الحالات بمحاولة حرق أنفسها على غرار البوعزيزي احتجاجا على وضعها البائس.

لكن نلفت الانتباه إلى أن مديري الغرف، وصفحات مواقع التواصل الاجتماعي لا يبقون هويتهم بشكل دائم طي الكتمان، إذ نجدهم يكشفون عنها إما كليا أو جزئيا، عن طريق ترك عدد من الآثار الرقمية الدالة عليهم. معلنين بذلك انهيار جدار الخوف، وخاصة عندما يلحظون ازدياد أعداد منخرطي الغرفة، وعندما يحسون بتحول الحوار مع هؤلاء المنخرطين من التعاطف إلى التقمص، وتنبعث روح التضامن فيما بينهم، وتصبح مشاركتهم في حوارات الغرفة نوعا من الالتزام اليومي، ويضحى انتماؤهم إليها، أقوى من انتمائهم لحزب أو لجماعة، حيث يعيشون صيرورة اللاستقطاب (Depolarization)¹⁸، بمعنى أدق يشرعون في التحرر من انتمائهم الحزبي السابق لمعانقة أراء ومواقف الغرفة المبنية على المشاركة الأفقية. هكذا، عندما يكشف مرتادو الغرف وصفحات الفايس بوك عن هويتهم يكون الاعتقال مصيرهم، وليخرج أولئك الذين شاركوهم حواراتهم إلى الشارع مطالبين في البداية بإطلاق سراحهم وليتحول المطلب بعد ذلك إلى أسقاط النظام (ومن الأمثلة على ذلك، الفتاة طلال الموحدي من سوريا، وائل غنيم من مصر، والمغني الراب التونسي حماده بن عمر الملقب بالجنرال). وبهذا تبدأ صيرورة تحول المواطن من مشاهد إلى مشارك في عملية التغيير.

خاصية الذات غير الرئية:

يتم الحوار في غرف الدردشة ومنتديات الويب، في الغالب الأعم، دون رؤية وجوه المتحاورين ودون سماع صوتهم وإنما اعتمادا على فعل الكتابة فقط، وقد يحضر الميكرفون والكاميرا الرقمية، أحيانا، عند ما تنشأ علاقة حميمة بين متحاورين. إن غياب رؤية المحاور والمحاور هنا وغياب سماع نبراتهما الصوتية، قد يوحى لكل منهما بكونه يتحدث مع نفسه بعيدا عن نظرة الآخر له. الشيء الذي يمنح كليهما الشجاعة الكافية للبوح بأفكار كانا يحتفظان بها لنفسيهما.كما أن من يرتادون غرف الدردشة غير حاملين لهاجس السؤال عن الكيفية التي بها يبدون في أعين محاوريهم وهل هم أنيقون في ملبسهم؟ وهل صورتهم الجسدية مقبولة من طرف هؤلاء المحاورين؟ وهل نبرات صوتهم دافئة وهادئة؟ أم خشنة ومزعجة لسامعيهم؟ إذ تظل الكتابة هي أساس عملية التواصل في منتديات الويب وغرف الدردشة وليس التخاطب وجها لوجه. زد على ذلك أن غياب الإدراك الفيزيقي المباشر للآخر، والمتمثل أساسا في جهل كل عضو لشكل جسد بقية الأعضاء ونبرات صوتهم يسهل عملية التواصل ويخلق منها وضعية لا رقابية بامتياز. مما يضمن لمن يود التعبير عن فكرة ما عدم ارتباكه أثناء إبلاغه لها بسبب عبوس وتجهم محاوره. بينما في الواقع الاجتماعي نجد المرء في حديثه مع الآخر مهتما بإيماءات وجه هذا الآخر وحركات جسده وهمساته. فحركة رأس المتلقى التى تفيد الرفض وابتسامته الساخرة ونظراته التحذيرية، قد تؤدي بالمرسل إلى تغيير اتجاه الحديث نحو وجهة نظر قد ترضى المتلقى³².

إن هذه الخاصية هي التي مكنت الشاب العربي الذي يعاني من القهر النفسي والاجتماعي، من تجاوز هاجس الخوف من مواجهة الرقيب وجها لوجه أثناء إبدائه لرأيه. والتحدث بثقة عالية في النفس عن مواقفه وقناعاته دون الاكتراث بنظرة حراس النظام له. فجسده مخفي غير مكشوف لحراس النظام وغير محصور في مكان معين يسهل ضبطه ومراقبته وهنا نجد ومثال ناشط تونسي، أيام الثورة، يعمل على تحديث بشكل يومي صفحته على الفايس بوك وفي نفس الوقت يقوم بتدبير حساب له على التويتر الذي يضم الآلاف من المنخرطين وينشر فيديوهات

على اليوتوب ودايلي إيموشن، ومبرره في ذلك " أنا مثل الشبح، لا أسكن مكان بعينه وإنما في كل مكان ولا يمكن لبن على الإمساك بي"³³.

خاصية التروي في رد الفعل:

إن ما يميز عملية التواصل عبر شبكة الانترنيت، سواء عبر الرسائل الرقمية أو من خلال غرف ومنتديات الدردشة أو المواقع الاجتماعية، هو عدم إلزامها للمتلقي بالرد على الرسالة في حينه. فمن المكن أن يتريث في الإجابة ويأخذ قسطا من الوقت يراه كافيا للرد والذي لربما قد لا يتعدى ثوان ودقائق أو قد يدوم ساعات وأيام. وعلى العكس من ذلك يشترط في الوضعيات التواصلية الطبيعية وبخاصة الشفهية منها والتي تتم وجها لوجه بين المرسل والمتلقي، الإجابة الفورية على الرسالة. الشيء الذي يخلق لدى هذا المتلقي هاجس الرد الآني وما يترتب عنه من وضعيات إرباكية لا تسمح له أحيانا بالإبحار في أفكاره وتقليبها على جميع الأوجه وتنظيمها وإعادة صياغتها. لتخرج تلك الأفكار بشكل متسرع يلفها الغموض وعدم الوضوح، وتتخللها أحيانا فلتات اللسان وأخطاء التعبير، ويغيب عنها فن الإقناع والإبلاغ.

وارتباطا بسياقنا هذا، نشير إلى أن نظام بن علي قد أحاط نفسه بمجموعة من الخطباء والمتكلمين الذين يتقنون فن الإبلاغ وصياغة الحجج بناء على معطيات مفبركة، كما أحاط مبارك نفسه بمؤسسات إعلامية ضخمة وصحفيين يعملون على الترويج لنظامه والدعاية لما يعتبر حسنات ومنجزات له. هكذا، وأمام هذا المشهد، من الصعوبة بمكان أن يتمكن شاب يافع ليس لديه تجربة في السجال السياسي مواجهة متكلمي وصحفيي نظام مبارك أو بن علي في المناظرات السياسية. لكن شكل المواجهة سيختلف عبر الرسائل الرقمية ومواقع التواصل الاجتماعي. فهذا الشاب ليس مطالبا بالرد على الرسالة في حينه ولا بالتقيد بزمان ومكان الرد، ولا بمواجهة الشاب ليس مطالبا بالرد على الرسالة في حينه ولا بالتقيد بزمان ومكان الرد، ولا بمواجهة عمهور عريض من الناس. فبمقدوره أخذ وقته الكافي للرد، الشيء الذي سيساعده على تجاوز عائق الخجل والخوف في مواجهة أبواق النظام. ومادام لديه الوقت الكافي ليأخذ نفسه، ويفكر

مليا في الإجابة فسينظم أفكاره على مهل ويراجعها ويرتبها ويبحث عن اللفظ الملائم للتعبير عنها، كما بمقدوره البحث في الشبكة العنكبوتية عن المعطيات والحجج المضادة لأطروحات النظام، كما يمكنه القيام بنوع من التوصيف الذاتي لإجاباته (Self-description) 35 ، أي البحث بشكل واع عن مظاهر توفق إجاباته وقصورها لدحض مقولات النظام قبل أن ينشرها على مدونته. ولا جدال في أن هذه الاستراتيجية قد مكنت مجموعة من المدونين الشباب إبان الثورة وقبلها من عرض بيانات قوية ومؤثرة على شبكة الويب. ففي مصر تمكن الأعضاء السابقين لشبيبة حركة كفاية في مارس 2008 من فتح صفحة مؤثرة على الفايسبوك تحكي بتفصيل أحداث معاناة عمال النسيج لمدينة المحلة وتدعوا للتضامن معهم. إن إنجاز هذه الصفحة كان فيه ضرب من الاحترافية وحضور للاستراتيجية التروي في رد الفعل. وقد ترتب عن ذلك ارتفاع اعداد الزائرين لتلك الصفحة وخروج، مظاهرات عارمة في 6 أبريل، وتنفيذ إضرابات قوية وبزوغ حركة شبابية سياسية من ناشطي النت أطلق عليها اسم 6 أبريل والتي سيكون لها دورا فعالا إبان الثورة. ومن هنا نفهم أن نضج فعل التدوين كان له تأثيره على اتجاه الرأي العام المصري، كما حظي باهتمام الشباب المصري، حيث قدر عدد المدونين الذين في أغلبهم شباب، منذ 2008، -100000 مدون أقد.

أما في تونس فقد ظهر فعل التدوين في وقت مبكر، أي منذ 1999. لكن كان يخلوا من أي رؤية احترافية، فقد نظر إلى المدونين بكونهم منعزلين كليا على المجتمع التونسي، إذ وصفوا بمنشقي النت (Cyberdissident). ومن بين المدونات المعارضة للنظام التي ظهرت في هذه الفترة، مدونة تكريز Takriz سنة 1998 والتي كانت تعتمد في نقدها للنظام، وكما سبقت الإشارة، على اللغة السوقية المخلة بالحياء، ومدونة تونزين Tunezine سنة 2001 واليقظة التونسية سنة 2002. لكن تمثلت مرحلة التقدم في عملية التدوين سنة 2004 مع تأسيس مدونة نواة، حيث اعتمدت بوضوح استراتيجية التروي في رد الفعل. فهي لم تنهج سياسة النقد من أجل من نقد مؤسسات النظام الحاكم ولكن النقد المبني على التوصيف الذاتي لخطابات

النظام، والبحث عن معلومات ومعارف إخبارية دقيقة مترجمة أحيانا من الفرنسية والإنجليزية واعتمدها كحجج لدحض افتراءات النظام. بحيث قامت بترجمة مثلا أخبار ويكليكس من الإنجليزية إلى العربية. كما ترفعت عن استخدام اللغة السوقية في انتقاد مؤسسات النظام ورموزه. وبالتالي شكلت مدونة نواة منذ 2004 جيلا جديد في فعل التدوين، وقد راهنت من خلال اعتمادها على استراتيجية التروي في رد الفعل كسب ثقة نشطاء النت، ودعوتهم إلى الخروج من وضعية الفضاء السيبرنيتي المبلقن (Cyberbalkanisation)، والمتمثل في كون كل مدون يعيش في فضائه الخاص معزولا عن فضاء المدون الآخر، نحو فضاءات رقمية مشتركة. ومن هنا، أدرك المدونون التونسيون أن إنهاء تشرذمهم في الفضاء الرقمي سيشجعهم مستقبلا على التوحد في الفضاء العمومي في مواجهتهم لنظام الحاكم. وتأسيسا على ذلك، ظهر تكتيك التجميع (Agrégateur) لدى المدونين التونسيين، المتمثل في تضمن أية مدونة عددا من الروابط التي تحيلك إلى مدونات أخرى. الشيء الذي أشر عن بداية ترسيم السلوك التضامني بين مناضلى الويب.

إجمالا ما ميز الجيل الجديد من المدونات في تونس انفتاحها على شبكات التواصل الاجتماعي وعلى عدد من الخبراء والأطر قصد الاستشارة للرد على افتراءات النظام. والتعاون فيما بينها لتحريك أكبر عدد من نشطاء النت للرد على تعليقات شرطة النت (Cyber police) على الفايس بوك وتويتر ودحض ادعاءاتهم بالحجة والدليل. زد على ذلك، استخدامها في بياناتها الدراجة التونسية أحيانا المؤثثة بعبارات تسخر من النظام، مع ابتعادها عن الخطابات المطولة لعدم ازعاج الملتقي. واعتمادها، كذلك، على تقنية إرسال النشرات الإخبارية اليومية (Newsletter) إلى البريد الرقمي لأكبر عدد من التونسيين 37.

اللاستقطاب من خلال استدماج الآخر في الذات:

إن التحاور في غرف الدردشة ومنتدياتها يعتمد في الغالب الأعم على فعل الكتابة. وبسبب أجواء الصمت التي تحيط بفعل الكتابة ينتاب الفرد شعور بكونه لا يتحاور مع الآخرين ولكن يفكر معهم. حيث يتسلل إليه الإحساس بكونه يتماهى مع أذهانهم. فإعجابه بأفكار الآخرين بالنظر لتناغمها مع أفكاره، وتعاطفه مع معاناتهم الشبيهة بمعاناته، يفضي به إلى الشعور بكون تلك الأفكار هي أفكاره وتلك المعاناة هي معاناته. وكأن هؤلاء الآخرين يفكرون ويتحدثون داخل ذهنه.

وإذا كنا في تواصلنا اليومي مع الآخر نقوم بإلصاق جملة من الأحكام الجاهزة والنعوت النمطية به، بناء على ملاحظتنا لطريقة حديثه وتصرفه. فإن الأمر يختلف في عالم الدردشة الرقمية الذي يخلق لنا نوعا من الإحساس بكون حديث الآخر وتصرفه هو جزء من حديثنا وتصرفنا. إذ نجد أنفسنا ننظر إلى ذواتنا من خلاله ونتماهى معه، ونعتبر حالاته النفسية انعكاسا لعوالمنا النفسية الداخلية. بل أكثر من ذلك ننتظر من كلامه أن يجاري كلامنا ومن أمانيه أن تكون شبيهة بأمانينا، مما يجعلنا أكثر تعاطفا معه وأكثر تفهما لمشاكله. وبهذا الصدد نعتمد نوعا من التقمص النفسى لقراءة حالات الآخر الذهنية والعاطفية والذي يتلخص في فكرة مفادها: وضعنا أنفسنا مكان الآخر لمعرفته. الشيء الذي يؤسس لا لتوافقات على مستوى المواقف السياسية فقط، بل نوعا من الانصهار في نفس الحالات الذهنية والعاطفية، والفهم المشترك لجملة من الموضوعات. وهنا يبرز على النت ضرب من الصداقة الإيجابية، المبنية على التآلف والتعاطف والحميمية بين أفرادها، والتي تنتهي بهم إلى الانخراط في علاقات تضامنية نوعيه، إذ عندما يعتقل أي فرد يخرج الجميع للشارع ينادي بإطلاق سراحه، رغم كونه غير معروف لدى بقية أعضاء الغرفة كوجود فيزيقي، وإنما كوجود افتراضي فقط. وانطلاقا من ديناميكية الانصهار العاطفي والتي تتلخص في شهادة أخذت من مغربي، يداوم على إحدى غرف الدردشة " كنمشى نشاطى حقاش تما صحابى لى كايفهمونى"، ينخرط الفرد بشكل إرادي في صيرورة اللاستقطاب من النظام الحاكم ومؤسساته الحزبية والجمعوية إلى الانتماء إلى غرفة الدردشة. هذا الانتماء الذي سيصبح فيما بعد نوعا من الالتزام اليومي، حيث يصبح الفرد أكثر انضباطا لمواعيد غرفة الدردشة من التزامه بحضور تجمع خطابي لحزب ما. وربما أكثر من ذلك، يصبح من الرافضين للانتماء الحزبي، حيث نجد ومثال في بدايات الربيع العربي انتشار عدة صفحات على فايس بوك تدعو في المغرب إلى إسقاط الأحزاب وزعمائها. كما نستشف من خلال مضمر جواب مغني الراب الملقب بالجنيرال "أنا لا أفهم في السياسة" في حوار له على قناة الجزيرة، كونه ضد السياسية في شكلها القائم في الوطن العربي المبنية على الحزبية الضيقة التي تخدم مصالح زعماء الحزب والاستقطاب الحاد وصياغة القرارات بشكل فوقي. وما يؤكد هذا المعطى خروج دراسة ميدانية طبقت على 1200 من نشطاء النت شاركوا في اعتصامات ميدان التحرير، بنتيجة مؤداها أن نسبة 65.6٪ من مجموع العينة، أقرت بعدم انتمائها لأية جهة حزبية ولأية جمعية أهلية أو خيرية، زد على ذلك أن نسبة 66 % من مجموع العينة أكدت على عدم الشاركة في أية مظاهرة أو اعتصام من قبل قب كما أن أغلب المدونين ونشطاء النت التونسيين الذين تم استجوابهم أفادوا أن ليس لهم أي انتمائي سياسي حزبي 40.

إن قوة الانتماء إلى غرف الدردشة ومواقع التواصل الاجتماعي، هو الذي تحول لا حقا إلى قوة انتماء الثوار إلى ميدان التحرير وإلى ساحة القصبة، والذي بدا لدى الجميع في تلك اللحظة أنه أكثر قوة من انتماء بعض النشطاء إلى حزبهم أو جماعتهم الأصل. إذ عندما سئل أحد شباب الإخوان المسلمين قبل أيام من سقوط مبارك: ما موقفكم إذا طلب منكم تنظيمكم ترك الميدان؟ كانت اجابته بلا، وقد أكد ما يفيد انتماءه لميدان التحرير أكثر من الجماعة.

تحييد المركز:

لا خلاف في كون أغلب المجتمعات محكومة بمنظومة تراتبية من العلاقات والتي تمكن بعض الناس دون غيرهم من النفاذ إلى الموارد المادية والطبيعية للمجتمع بسهولة ويسر. وترسخ تلك المنظومة في أذهان الناس اعتبار الطبقية الاجتماعية والهرمية السياسية واحتكار وسائل الإنتاج في يد فئة قليلة من الأشخاص أمرا بديهيا لا محيد عنه. الشيء الذي يتيح لتلك الفئة المحظوظة نفوذا سياسيا واجتماعيا يمكنها من التحكم في الآخرين ومصائرهم. ولكن شراهتها غير المحسوبة تدعوها، أحيانا، إلى البحث أكثر فأكثر عن المزيد من النفوذ والهيمنة الاجتماعية. والنتيجة دخول بعض المستضعفين في مواجهات حادة معها. بينما يعمل البعض الآخر على التكيف مع هذا الواقع غير العادل وذلك من خلال اعتماد مجموعة من العمليات المعرفية والعاطفية التي ترسخ في ذهنهم كيفية الامتثال والطاعة العمياء للفئة السائدة وتعلمهم كيفية توقع غضب تلك الفئة وتجنب شرها 4.

أما في غرف الدردشة الرقمية، فعلى عكس ذلك لا وجود لأي عضو يتمتع بنفوذ اجتماعي أو سلطة سياسية مهيمنة على بقية الأعضاء. وذلك لكون الشرط الأساسي للالتحاق بالغرفة يتمثل في تحييد المركز—Neutralizing of status — . حيت يتم تغييب أية إشارة تحيل إلى مراكز المتحاورين ومستويات نفوذهم السياسي والمؤسساتي. بينما نرى في الوضعيات التواصلية الطبيعية جملة من الزخارف والأكسيسوارات التي تبين درجة نفوذ المخاطب اجتماعيا (لباس غالي الثمن، مكتب فاخر، شواهد ودبلومات معلقة على حائط المكتب، حرس خاص...). والغاية من كل هذا أن يبين لمحاوريه مدى تميزه ومدى قوة مركزه الاجتماعي، وأن يرسخ في أذهانهم كونه شخصا جد مهم وعليهم احترامهم والانصياع لقراراته 42. ومن الملاحظ أن جزءا كبيرا من أساليب الرقابة والتحكم في العالم العربي قائم على منح نوع من الهالة والقدسية على الحاكمين من خلال إضفاء بعض الألقاب والصفات عليهم " بابا مبارك، ماما سوزان، بن علي القائد المنقذ، القذافي ملك ملوك إفريقيا..." وتأثيث الساحات العمومية بصور ضخمة لهم، وأحيانا تماثيل لهم " تمثال بشار وحافظ الأسد في سوريا"، ولا فتات تشيد بمناقبهم وسننهم.

ومنح معاونيهم ومن هم في خدمتهم توسيمات ونياشين تبين للموطنين درجة نفوذهم. والغاية من ذلك وضع مسافة نفسية بينهم وبين المواطنين، تكون محكومة بضرب من التعالي، مضفية على أولائك الحكام وحراسهم نوعا من الهيبة التي تؤهلهم للتحكم في رقاب المواطنين، وتوجيه هؤلاء المواطنين نحو غايات ومرامي تخدم في الغالب الأعم النظام وزمرته.

وفي المقابل يشكل جهلنا التام، في مواقع الدردشة، بالمراكز الاجتماعية للآخرين، سببا رئيسا في تنافي الفروق بين الأفراد وتساويهم على مستوى الحق في عرضهم لأفكارهم وتصوراتهم. وتجدر الإشارة هنا إلى أن التقدير والاحترام لا ينبع من مدى تمتع زيد أو عمر بمركز اجتماعي قوي، ولكن مدى تمكن الفرد من فهم الآخرين والتعاطف مع معاناتهم ومدى قدرته على إبداع أفكار نوعية ومقترحات عملية يمكن اعتمادها لمواجهة مشاكلهم. إذ يتم التعامل مع المرء في غرفة الدردشة بوصفه إنسانا أولا وأخيرا دون اعتبار للونه أو لجنسه أو لنسبه أو لانتمائه الطبقي. ومن هنا تنتفي جميع أشكال السلطة الموجهة للحوار. وفي غيابها يجد الفرد نفسه في وضعية لا وقابية تدعوه إلى التعبير عن آرائه ومواقفه بكل طلاقة وحرية.

هكذا فإن نقل آلية تحييد المركز من غرف الدردشة الرقمية ومن مواقع التواصل الاجتماعي إلى الواقع السياسي المعيش، لهو إنجاز يحسب لشباب الثورة في العالم العربي. فانطلاقا من وعيهم بكون الديمقراطية الحقيقية تبنى من خلال مدى تمكننا من تقييم أداء الأفراد بتجرد عن مراكزهم، امتلك هؤلاء الشباب الشجاعة الكافية لتجاوز مراكز حاكميهم. وقد ظهر ذلك من خلال جرأة رفع شعار " بن علي ارحل... ارحل" في ساحة القصبة أو رسم مبارك على شكل كاريكاتير على جداريات ساحة التحرير أو القيام بتقليد كومودي مسرحي لشخص القذافي في بنغازي.

وبالعودة إلى الثورة التونسية، تجدر الإشارة إلى أنه من بين التكتيكات التي اعتمدت لجس نبض النظام التونسي، بغية المس بهيبته والعمل على تحييد مركزه: تكتيك الاعتصام المفاجئ Flash mob عيث قامت في بداية الثوة جماعة صغير من الدونين التونسيين بعملية جريئة تمثلت في اعتصام مفاجئ في مترو تونس تضامنا مع أحداث سيدي بوزيد، حيث لم يسمحوا للمترو بالتحرك لمدة ناهزت الساعة. كما ظهرت آلية تحيد المركز بجلاء على الانترنيت يوم يناير، حيث قام عدد كبير من الهاكرس والانونيموس بهجوم شامل على سبع مواقع لوزارات سيادية، وتركوا وراءهم وعلى صفحات مواقع تلك الوزرات العبارة التالية: "لقد سمع الانونيموس نداء الشعب التونسي من أجل الحرية. وهم دائما مستعدون لمساعدة التونسيين ضد القمع...وهذا تحذير للحكومة التونسية التي تحارب حرية التعبير والاعلام...". وقد علق أحد نشطاء النت التونسيين على ما قام به الانونيموس "تخيل معي أن مواطنا عاديا يدخل لأحد اللواقع ليبحث عن معلومات تهمه فيجد الرسالة التي تركها الانونيموس، فأية هيبة تبقى للنظام؟".

وفي خضم الثورة التونسية يظل سؤال المجتمع المدني وكيفية تفاعله مع آلية تحييد المركز سؤالا مشروعا. ما دام أن المجتمع المدني في تونس كان شبه غائب، أو بالأحرى مغيبا في زمن بن علي. فأغلب الجمعيات كانت عبارة عن شعب تابع لحزب التجمع الدستوري الحاكم ورؤساء تلك الجمعيات معينون من طرف الحزب. لكن رغم ذلك سجلت بعض حالات الاستثناء. نأخذ مثال منتدى للدردشة للنادي الافريقي لكرة القدم كيف قرر أعضاؤه الانخراط في مسار الثورة وكيف قاموا بتحييد المركز بشكل متدرج. ففي 6 يناير شرع بعض أعضاء المنتدى بخجل شديد تداول ما يحدث في تونس من حراك. ولكن في 9 يناير بدأ الحديث بشكل صريح عن الأحداث، حيث نجد الشهادة التالية " اليوم قتل 11 فردا في مدينة تالة مسقط رأسي رميا بالرصاص، منهم فتاة لم يتجاوز 8 سنوات، وفقا لمصادر طبية فأغلب الإصابات في القلب والبطن... أعلم أنه منتدى رياضي ولكن لا أستطيع التحمل أكثر" الرد " الله يرحمهم"، ورد آخر من طرف مدير المنتدى" رجاء تحدثوا عما يهم كرة القدم، فالنادي ليس نادي سياسي، كما أن عمر يراقب هذه الأيام مختلف المواقع، وكلام مثل هذا سيؤدي إلى غلق المنتدى". لكن في

10 يناير مع ازدياد حدة حراك الشارع وازدياد عدد الضحايا، نجد أن أعضاء المنتدى لم يتوقفوا عند حدود التأسف والتعزية، وإنما أخذوا يدينون بشكل صريح جرائم النظام. بحيث كانت الإدانة في البداية متواضعة تتضمن نوعا من السخرية " برافو لمن رمى الرصاص على المتظاهرين، برافو لتوانسا الذين يقتلون توانسا" أصبحت فيما بعد أكثر حدة "اليوم قتل 20 شخصا وأنا جد مصدوم، لا مكان لكرة القدم في ذهني، نادينا نادي كبير وتونس أكبر منه، اصدقاؤنا يموتون كل يوم ونحن نتفرج " "آه من قناة 7 التونسية تعرض الحفلات الراقصة، كأن شيئا لم يحدث، أنا أحس بأن هذه القناة تهيننا" " لنتوقف عن الحديث عن الكرة ولنلتحق بأصدقائنا في الشارع". لتظهر بعد ذلك في صفحات المنتدى وبالضبط عشية 10 يناير بعد خطاب بن علي، عبارات صريحة لتحييد المركز "تونس أكبر من أن يحكمها رئيس غبي، بن على ارحل"44.

خاصية الحصول المباشر على العلومة:

من بين أهم الأشياء التي تعلمها مواطن بلدان الربيع العربي، أن يثق أكثر في المعلومات التي يحصلها من مصدرها الأصلي بدرجة أكثر من تلك التي تبلغه بها مؤسسات النظام. فمن المعلوم أن الأنظمة الاستبدادية تلجأ إلى ما يسمى بوكلاء انتقاء المعلومة Filtering agent الذين يعملون على تصريف المعلومات التي يرونها تخدم مصالح النظام وحجب تلك التي تشوش عليه 45. و"وكلاء الانتقاء" في سياقنا هذا، ليسوا سوى مؤسسات الدولة، حيث يتخذون شكل مراكز إعلامية ضخمة سمعية بصرية ومكتوبة كما هو الحال في نظام مبارك، أو جمعيات وجامعات ومعاهد تعليمية ومساجد، كما هو الأمر بالنسبة لنظام بن علي. حيث يصبح الشغل الشاغل لهذه المؤسسات ليس القيام بالوظائف المنوطة بها، ولكن تقديم معلومة ما بصورة مؤثرة، يمكن من خلالها التحكم في الرأي العام وتوجيهه بالشكل الذي يخدم المصالح الضيقة للنظام.

نتائج مباراة لكرة القدم إلى تأجيج مشاعر الغضب لدى المصريين اتجاه الجزائريين وحولت المشهد إلى قضية وطنية. إذ من الواضح أن تضخيم هذا الحدث سمح بإبعاد الرأي العام ولو مؤقتا، عن مشاكل جوهرية وعميقة كان يعاني منها آنذاك المجتمع المصري. ولكن السؤال الاستنكاري الذي يطرح نفسه بهذا الصدد، بأي معنى تصبح المؤسسات التعليمية مثل الجامعات وكلاء انتقاء المعلومة؟ أجد نفسي هنا ملزم باستحضار هذا المعطى الاثنوجرافي المؤثر. ففي صيف 2002 في مؤتمر الطلبة المغاربيين، قدم أحد الطلبة الليبيين مداخلة جاء فيها أن رئيس الوزراء طوني بلير يستخدم ما يسمى بالبطاقات الخضراء المستمدة من الكتاب الأخضر في تسييره شؤون بلاده. وقد سألته فيما بعد من أي مرجع أخذت هذه المعلومة. فكانت إجابته من إحدى المحاضرات بجامعة الفاتح. ويبدوا جليا، هنا، أن دور النظام في تدجينه للجامعة لم يقف عند حدود انتقاء المعلومة المفيدة له بل وصل إلى حد تزييفها.

كما تجدر الإشارة إلى أن إبان الثورة التونسية قام النظام بتجنيد أكبر عدد من المخبرين، اقتصرت مهمتهم على المشاركة في الحوارات القائمة على الفايسبوك مدعين كونهم مواطنين عادين، والرد على نشطاء النت وتشويهم وتقديم معلومات خاطئة عنهم.

وتبقى فائدة الشبكة العنكبوتية بهذا الصدد، تتمثل في تمكين مستخديمها من الحصول على العلومة من مصدرها الأصل ودون الحاجة لمرورها بوسيط انتقائي. ومن خلال هذه الآلية اكتشف شباب ليبيا أن العالم مختلف عن ذلك الذي رسمه لهم معمر القذافي. وقد تم اعتماد المصدر الأصل بشكل جلي في اللحظة التي قرر فيها "وكلاء التصفية" حجب المعلومة عن المواطنين بمنع مجموعة من القنوات الفضائية على تغطية أحداث الربيع العربي. وأضحى اليوتوب ومواقع التواصل الاجتماعي مصدر المعلومة. حيث أصبحنا نرى نشطاء وفاعلين في تلك الأحداث وعائلات الضحايا ومواطنين عاديين هم من يقوم بتغطيتها وبثها على النت. وهنا ظهر ما يطلق عليه اليوم المواطن الصحفى أو الصحافي غير النظامى الذي لا ينتمى إلا أية مؤسسة إعلامية،

فهو يقوم بالفعل الصحافي بشكل عفوي وتلقائي. ومن بين أهم المشاهد المؤثرة على الرأي العام، والتي تم تغطيتها من طرف نشطاء النت وتم تداولها في عدد من مواقع التواصل، وحظيت بأكبر عدد من الزائرين الذين أشروا بlike ، استخدام ليلى الطرابلسي لطائرة الدولة في رحلاتها الخاصة للتسوق، ونشر صور الطائرة وهي تهبط عائدة من مدن التبضع الأوربية براكب واحد، زوجة الرئيس. وفي مصر تمكن أحد نشطاء النت قبل الثورة من نشر على عدد مواقع التواصل الاجتماعي مقطع فيديو تضمن معتقلا يتعرض لاعتداء جنسي من طرف أمن دولة. وقد خلف هذا المقطع استياء لدى عدد من الأوساط في مصر 46.

في احتجاجات سيدي بوزيد، وأمام سياسة التعتيم الاخباري للنظام Black-out، تمكن عدد من نشطاء النت بتصوير أحداث ونشرها على جدران الفايسبوك وعلى صفحات اليوتوب، بدون إضافة أي تعليق. وذلك لكي لا تكون عرضة للحجب. لتنشر بعد ذلك على نطاق واسع، لدى مستخدمي الفيسبوك وبهذا يصعب تتبعها ومنعها. وهكذا أمام سياسة التعتيم الاخباري أضحت بعض القنوات الإخبارية الفضائية، مثل فرانس 24 والجزيرة، تعتمد على ناشطي النت لمدها بالأخبار والصور.

أضف لما سبق، كشفت لنا عملية الحصول على المعلومة من مصدرها الأصلي عن شكل جديد من المراسلين والمتمثلين في نقلهم الحدث ومشاركتهم، كذلك، في صناعته، فنجد في تونس عددا من المدونين أمثال سفيان الشورابي، لينا بن مهني، وسليم عمامو يغطون الخبر وفي نفس الوقت يشاركون في المظاهرات.

وفي سياق آخر، تلعب المعلومة التي تؤخذ من مصدرها الأصل، أي من الناس الذين عاشوا تلك التجربة أو عايشوا تلك الأحداث دورا فاعلا في تمكين الفرد من جرأة اتخاذ القرار 48. بحيث في دراسة لنساء مصابات بسرطان الثدي كن مترددات في إجراء عملية استئصال الثدي، لوحظ أنهن قد امتلكن الشجاعة الكافية للقيام بتلك العملية الجراحية بعد أخذهن استشارة لا

الطبيب المعالج ولكن نساء أخريات سبق لهن أن أجرين تلك العملية وذلك عبر غرف الدردشة. وربما ذات الحكاية تكررت مع صيرورة الثورات العربية، فالشباب المصري كان مترددا في المرور إلى الفعل وهو إسقاط النظام، إلى أن عايشوا، في حواراتهم مع أشقائهم التونسيين على مواقع التواصل الاجتماعي، تجربة سقوط بن علي، فتم، أنداك، رفع الشعار " أنتم السابقون ونحن اللاحقون".

وتتجلى أهمية المعلومة التي نحصلها من مصدرها الأصل كذلك، في تمكيننا من نوع من التعلم غير المباشر⁴⁹، ففي الغالب نميل إلى عدم الانخراط في تجارب جديدة إلا بعد الاستفسار عن مآل أولائك الذين عاشوا تلك التجارب والتعرف عن الاستراتيجيات والأدوات التي اعتمدوها في معالجتهم لتلك التجارب، لنقتصد الوقت والمجهود الذهني وللا ندخل في مغامرات غير محمودة العواقب والتي قد تكلفنا غاليا. ونعتقد أن هذا ما حصل بالفعل بين النشطاء المصريين والتونسيين، حيث استفاد المصريون من تجارب التونسيين عبر تبادل المعلومات من خلال غرف الدردشة ومواقع التواصل الاجتماعي حول تقنيات التظاهر وكيفية التعامل مع أعوان الأمن، إذ أوصي بإحاطتهم بالمتظاهرين من كل جانب إذا ما حاولوا القبض على أحد النشطاء، وباستخدام المشروبات الغازية لإبطال مفعول القنابل المسيلة للدموع.

خاتمة:

عندما كنت أنجز هذا العمل، عرضت مسودته على زميل لي ليبدي رأيه فيه، وفي مجمل تعليقه عليه قال إن ما حدث في العالم العربي لا يمكن وسمه بصفة الثورة لأنه لا يتوفر على قائد وشرط الثورة تقتضي حضور القيادة. وكان جوابي أن ما يميز ثورة الربيع العربي كونها أتت لتحييد المركز وترسيخ مبدا القيادة التشاركية. إن ثورات الربيع العربي ثورات دون زعيم، وهذا هو العامل الأساس من بين عوامل أخرى والتي مكنتها من الانفلات من أجهزة الأنظمة الاستبدادية للرقابة والتحكم. ويبقى للشبكات

الاجتماعية وغرف الدردشة دور فعال في نجاحها، الشيء الذي يشكل تقويضا لفرضية بودريار Baudrillard ألقائلة بكون الشبكة العنكبوتية تؤسس لعالم ذهاني تخيلي، يجعل مريديها حبيسي أحلام اليقظة، ومتنفسا حالما لأشخاص غير قادرين على تغيير واقعهم والذين ينتهون أحيانا كثيرة إلى فقدان صلتهم بالواقع. لكن ما يمكن التأكيد عليه هو أن النت بغرفه ومواقعه الاجتماعية أسس لنوع من النشاط التنظيري والتخطيطي لما سنكون عليه مستقبلا. بمعنى أن شباب تونس ومصر قد شرعوا في تغيير واقع بلدانهم السياسي والاجتماعي على الفايس بوك وتويتر. وعندما اكتملت الصورة الافتراضية نقلوها إلى الواقع، وعملوا على تنفيذها وفقا لما خططوا له في عالمهم الافتراضي. إذ وقياسا على العلم الذي لا يمكن أن يتطور دون افتراض وتنظير وترييض، يجوز القول إن من بين شروط نجاح أي حراك اجتماعي وسياسي يجب أن يكون مسبوقا بنشاط تنظيري. والشبكة العنكبوتية وفرت فضاء مشجعا لفعل التنظير هذا. إن ما شجع النشطاء على نقل فعل التغيير من مجرد افتراض إلى واقع معيش هو تمتع الشبكة العنكبوتية بخاصية اللاكف والانفلات من الرقابة. الشيء الذي مكن شباب الفايس بوك من نقل المواجهة من العالم الافتراضي إلى العالم الواقعي، متجاوزين في ذلك الإحساس بالخوف من السلطة المؤسساتية القائمة، حاملين معهم الإحساس بالتضامن والتآزر الذي خبروه في غرف الدردشة والمواقع الاجتماعية إلى ميدان التحرير بمصر أو ساحة القصبة بتونس. فبحسب شهادة لناشطة للمدونة التونسية لنا بن مهني 51 " تمكن، في 22 ماي 2010، عدد من الناشطين من تجاوز حاجز الخوف وإقناع جمهور عريض من الناس عبر الانترنيت للتظاهر ضدا عن نظام الرقابة والمنع في تونس، وكان هذا أول حدث شهد عن نقل المواجهة مع النظام من العالم الافتراضي إلى العالم الواقعي المعيش". بينما كان الناشطون المصيريون سباقون لهذا فعل، فقد شرعوا منذ 2003، في تنظيم مظاهراتهم واحتجاجاتهم على النت ونقلها للواقع 52 .

وفي نهاية هذا العمل نود طرح السؤال التالي: هل عند حديثنا عن أهمية الانترنيت في ثورات الربيع العربي ألا نتبنى الموقف القائل بحتمية التكنولوجيا (Techno-deterministic

ideology)؟ بمعنى إلى أي حد يتماشى عملنا هذا والتصور الذي يقر بكون الانسان مع التكنولوجيا الحديثة أصبح مقدر عليه أن يغير سلوكياته السياسية والاجتماعية ونظرته للعالم، وأن يتقبل بصدر رحب، بحسب شيركياي (,Shirky 2011)، المعادلة التالية: الاعلام الاجتماعي = ديمقراطية أكثر = حرية أكثر⁵³.

لا أحد يشك، في كون ظهور المطبعة في القرن 15 قد غير من مصير الانسان. فقد أدى ذلك، بجانب عوامل أخرى، إلى ثورات وتحولات كبرى في أوروبا. كما مكن دولها من الانتقال من منظومات فيودالية فلاحية إلى أنظمة ليبرالية ديمقراطية. فالمطبعة سمحت للمواطن بالولوج إلى رأسمال المعرفة ومشاركة الآخرين هذا الرأسمال الذي كان سابقا حكرا على فئة قليلة من الناس. وبالتالى إن الديمقراطية في الحصول على المعرفة والمعلومة أسست لدعوات نحو ديمقراطية سياسية واجتماعية. لكن مع تكنولوجيا الاعلام الاجتماعي أصبح بإمكان أي الفرد لا الحصول على المعلومة فقط ولكن إعادة بنائها وتشكيلها، ومشاركة الآخرين إياها لا في حمولتها المعرفية والاخبارية فقط بل وكذلك في حمولتها الانفعالية العاطفية. فعندما يرسل لك صديق فيديو مؤثر حول مقتل الأطفال السوريين بالسلاح الكيماوي، فهو ينتظر منك أن تشاركه انفعاله وتأثره. كما أصبحنا نلاحظ أنه أصبح بالإمكان، مع الانترنيت، عدم البقاء حبيسي فضائنا الشخصي، وإنما اختراق فضاءات أخرى، أو بناء فضاءات جديدة لنشر، المعلومات التي نريد54. بمعنى أن مستخدم الانترنيت صار يبنى بشكل تدريجي نوعا من الاستقلالية في عملية التواصل والاتصال بحسب تعبير كاستيلز. فهو ليس في حاجة لمطبعة ولا لمؤسسة صحفية ولا لناشر أو لموزع ليحصل المعلومة أو ليوزعها. إذ نجده قادرا على القيام بكل هذه الأدوار من خلال علمية الانتقال من مشاركة الآخرين على النت في المعلومات والأحاسيس نحو المشاركة في الحراك السياسي والاجتماعي. ومن البديهي أن الشكل الجديد في الحصول على المعلومة وإعادة تصريفها للآخرين الذي يعد به الانترنيت، سيؤدي إلى تغيرات في سلوكياتنا السياسية والاجتماعية. ولا يعنى هذا الاستنتاج أننا نتفق مع الافتراض القائم على فكرة كون الأنترنيت هو العامل الأساس في التحولات السياسية التي عرفها العالم العربي مؤخرا. بل يمكن اعتباره عاملا مشجعا (Optimal effect)، ساهم إلى جانب عوامل أخرى في ثورات الربيع العربي. ومن بين تلك العوامل: الوضعيات الاقتصادية المتردية لدول الربيع العربي، الانقسامات بين أجنحة نفس النظام، درجة قمع النظام لشعبه التي تجاوزت حدود الاحتمال⁵⁵.

هوامش ومراجع :

أ- إن مفهوم المواطن المتفرج في مقابل المواطن المشارك مستمد من نموذج Piliavian حول السلوك الحسابي للفرد المتفرح (Bystander-Calculus model) لحظة مواجهته لحالة طوارئ تتطلب منه التدخل للمساعدة؟ فعندما يقوم هذا الفرد بحساب ذهني لما سيخسره أثناء تدخله لإنقاذ شخص ما من خطر محذق ويعتبر تداعيات تدخله هذا باهظة التكلفة وضربا من المغامرة غير محسوبة العواقب ومفتوحة على جميع الاحتمالات، عندئذ يتخذ وضعية المتغرج. وينطبق نفس التفسير على جميع الاحتمالات، عندئذ يتخذ وضعية المتغرج. وينطبق نفس التفسير على جمهور عريض من الناس الذين ظلوا في وضعية المتغرج أثناء ثورات الربيع العربي، معتبرين أنهم ليسوا على استعداد ليكونوا كبش فداء للآخرين. فعلى الآخرين أن يبادروا أولا للثورة، وأن التغيير هو مسؤولية الآخرين وليست مسؤوليتهم الذاتية. وقد باشرنا، بهذا الخصوص إجراء مقابلات ضمن دراسة اثنوجرافية قيد الاعداد، مع عدد من المغاربة عن السبب الكامن في عدم انخراطهم في مسار التغيير مثل تونس ومصر، فكان جواب بعضهم: "ننتظر ما سيؤول إليه الأمر في تونس ومصر وبعدها سنقرر". ومن الواضح أن جواب من هذا القبيل متضمن لعملية حسابية ذهنية لنسب الربح أو الخسارة التي سيخرج بها الفرد، إذا ما هو قرر الانخراط في سيرروة التغيير السياسي، والتي تجعله غالبا في وضعية المتفرج. ويبقى أن نشير إلى أن هناك عوامل نفسية أخرى تساهم في تحول الفرد من وضعية المتفرج ألى وضعية المنود ومناة هذا الفرد ومعاناة الآخر التي تتحول أحيانا من حالة التعاطف إلى حالة التقمص لشخصية الآخر. وهو ما يعدو جليا في نموذج البوعزيزي "كلنا سنحرق أنفسنا مثل البوعزيزي" أو في حالة خالد سعيد "كلنا خالد سعيد".

Crisp, R. J., & all. Essential Social Psychology: 2nd Edition. (London: Sage, 2010), p. 299

2 بشارة، عزمي. الثّورة التونسيّة المجيدة: تحليل بنية وصيرورة الثّورة من خلال يومياتها، المركز العربي للأبحاث والدراسة السياسات، (الدوحة/ بيروت، 2012)، ص 16.

3 بشارة، ص 19

Suler, J.R. <u>The online disinhibition effect</u>. *CyberPsychology and Behavior*, 7, (2004), p. – 4

Braithwaite, D. O., Waldron, V. R., & Finn, J. Communication of social support in computer-mediated groups for people with disabilities. *Health Communication*, 11, (1999) p. 123–151.

Sharf, B. F Communicating breast cancer on-line: Support and empowerment on the Internet. *Women and Health*, 26, (1997), p. 65–84.

Khabbache, H. <u>Comment les réseaux sociaux ont contribué au changement politique dans le</u> _7), p. 35. 2012 <u>monde Arabe? : Approche sociocognitive</u>, *Cahiers de psychologie politique*, n° 20.(

Castells, Manuel. *Networks of Outrage and Hope. Social Movements in the Internet age*.Cambridge: -8 Polity Press. 2012, p.9.

$$\frac{1084 - 2005 / 1 / 20 - 10:37}{20}$$
: مشروع وثيقة من أجل بديل ديمقراطي وشعبي، حزب العمال الشيوعي وثيقة من أجل بديل ديمقراطي وشعبي،

http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=30199

Karniol, R. Egocentrism versus protocentrism: The status of self in social prediction.

*Psychological Review, 110, (2003). p. 564.

¹⁵ <u>Baudrillard</u> J. Simulacres et Simulation, (Galilée, 1981), p. 8

تقرير راديو كندا الدولي، آلية الرقابة (غير مؤرخ): -http://www.rcinet.ca/arabe/archives/chronique/chroniques. de-rci/mecansme-censure-en-tunisie

Lecomte, R. Révolution tunisienne et Internet : le rôle des médias sociaux, VII | 2011 : _-\frac{17}{2011} : _-\frac{17}{2011}

Arab social media report, *Civil Movements: The Impact of Facebook and Twitter*, Vol. 1, No. – ¹⁸ 2 May 2011, *www.arabsocialmediareport.com/*

²¹ Faris M. d. La révolte en réseau : le « printemps arabe » et les médias sociaux, *politique* étrangère, 1, (2012), p 104

²²Barak, A & all. Fostering empowerment in online support groups. *Computers in Human Behavior*, 24, (2008), p.1867

²⁴ Khabbache, H. Empowering mindreading skill via online social networks. *Analele Universitaii Ovidius Constanta*, Seria Psihologie, Stiintele Educatiei, Asistenta Sociala, Ovidius University Press, 1, (2012), p.137..

²⁵ Barak, A., & all. Op.cit p. 1870

https://www.facebook.com/takrizo

27

Khabbache H. Are you a mind reader? In *Travail Social à l'Epreuve des Coopérations Fermées Enjeu Capital pour le Développement Humain*, Khabbache H & Beradi A Editeur. International Institute of Anthropology and Sociology and Human development Press. Fez Morocco. (2010) p.133.

²⁸ Lecomte, R. موقع سابق.

16459 العدد 2013 عربياً أنفسهم؟ صحيفة الرياض، 17 يوليو 2013م، العدد 2013

http://www.alriyadh.com/2013/07/17/article852728.html

³⁰Favre, D. & all .Empathie, contagion émotionnelle et coupure par rapport aux émotions *Enfance* Vol. 57(2005) p. 363 à 382.

³¹ Vinokur, A., & all. Depolarization of attitudes in groups. *Journal of Personality and Social**Psychology, Vol 36(8), (1978), p.872.

³² Barak, A., & all. Op.cit p.1871

33 المعطيات الامبريقة المعتمدة في هذه الدراسة مستمدة من نتائج مقابلات اجريناها عبر سكايب ومن خلال البريد الالكتروني مع عشرين ناشط نت ومدون تونسي، وذلك بعد شهرين من تاريخ رحيل بن علي. وقصد إغناء الدراسة تم الانفتاح، كذلك، على معطيات مقابلات أجراها Lecomte, R. موقع سابق.

³⁴ Taylor, J., & all. The effects of asynchronous computer-mediated group interaction on group processes. *Social Science Computer Review*, 20, (2002). P.260

35 خباش، هشام، نظرة إلى الطفولة من خلال مد الجسور بين المعرفية التعددية وعلوم التربية، مجلة الطفولة العربية، العدد 32، المجلد 8، (2007)، ص 89.

³⁶ Faris M. D. *Op.cit*, p 101-103

37

Lecomte, R. موقع سابق

38

نفس الموقع

Turkle, S. Whither psychoanalysis in computer culture? *Psychoanalytic Psychology*, 21, (2004). p.16.

39

Wilson C., Dunn A. Digital Media in the Egyptian Revolution: Descriptive Analysis from the Tahrir Data Sets, *International Journal of Communication* 5 (2011), Feature, p.1250

40

نفس الملاحظة الموثقة في الهامش 32

41

Cummins, D.D. How the social environment shaped the evolution of mind. *Synthese*, 122,. (2000).p.28.

42

Barak, A., & all. Op.cit, p. 1872

43

.Lecomte, R موقع سابق

⁴⁴ نفس الموقع

45

Worotynec, Z. S. The good, the bad and the ugly: Listserv as support. *CyberPsychology and Behavior*, 3,.(2000). p.797.

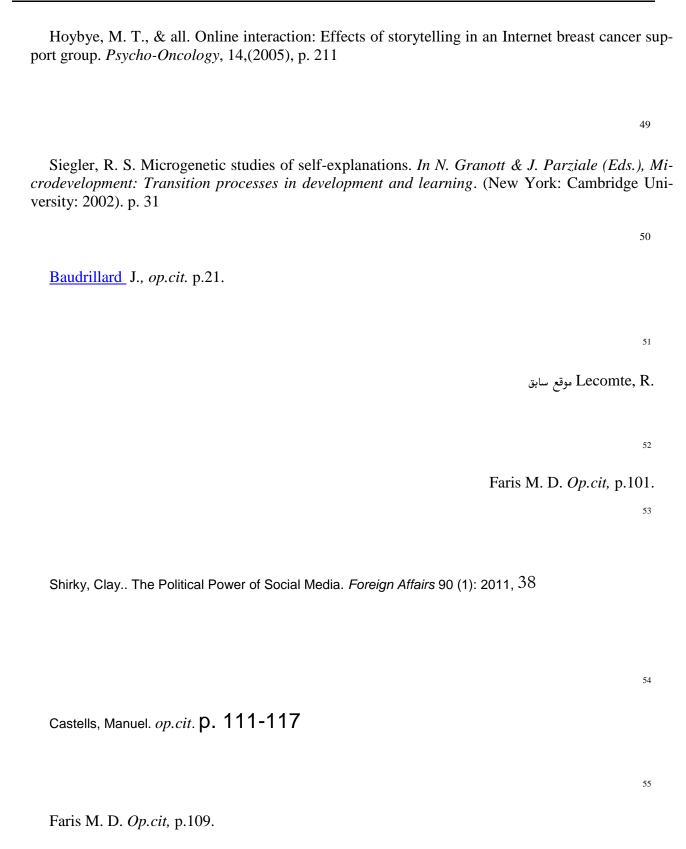
46

Faris M. D. *Op.cit*, p.101.

47

Lecomte, R. موقع سابق

48



المراجع العربية

- بشارة، عزمي. الثّورة التونسيّة المجيدة: تحليل بنية وصيرورة الثّورة من خلال يومياتها، المركز العربي للأبحاث والدراسة السياسات، (الدوحة/ بيروت،2012)
- خباش، هشام، نظرة إلى الطفولة من خلال مد الجسور بين المعرفية التعددية وعلوم التربية، مجلة الطفولة العربية، العدد 32، المجلد 8، (2007)، ص 89-92

المراجع الأجنبية

- Castells, M. Networks of Outrage and Hope, Social Movements in the Internet age, (Cambridge: Polity Press. (2012
- Crisp, R. J., & all. *Essential Social Psychology:* second Edition. (London: Sage, 2010),
- Cummins, D.D. How the social environment shaped the evolution of mind. *Synthese*, 122,. (2000
- , p. 3-28)
- Braithwaite, D. O., Waldron, V. R., & Finn, J. Communication of social support in computer-mediated groups for people with disabilities. *Health Communication*, 11, (1999) p. 123–151.
- Barak, A., Boniel-Nissim, M., & Suler, J. Fostering empowerment in online support groups. *Computers in Human Behavior*, 24, (2008).p. 1867-1883
- Baudrillard J. Simulacres et Simulation, (Galilée, 1981)
- Faris M. d. La révolte en réseau : le « printemps arabe » et les médias sociaux, *politique étrangère*, 1, (2012), 99 -101

- Favre, D. & al. .Empathie, contagion émotionnelle et coupure par rapport aux émotions *Enfance* Vol. 57(2005) p. 363-382.
- Hoybye, M. T., & all., Online interaction: Effects of storytelling in an Internet breast cancer support group. *Psycho-Oncology*, 14,(2005), p. 211–220
- Karniol, R. Egocentrism versus protocentrism: The status of self in social prediction. *Psychological Review*, 110, (2003). p.564–580
- Khabbache H. Are you a mind reader? In *Travail Social à l'Epreuve* des Coopérations Fermées Enjeu Capital pour le Développement Humain, Khabbache H & Beradi A Editeur. (International Institute of Anthropology and Sociology and Human development Press. Fez Morocco. 2010) p.129 142
- Khabbache, H. Comment les réseaux sociaux ont contribué au changement politique dans le monde Arabe? : Approche sociocognitive, *Cahiers de psychologie politique*, n° 20.(2012),

- Khabbache, H. Empowering mindreading skill via online social networks. *Analele Universitaii Ovidius Constanta, Seria Psihologie*, Stiintele Educatiei, Asistenta Sociala, Ovidius University Press, ,1, (2012), p. 136-147
- Sharf, B. F Communicating breast cancer on-line: Support and empowerment on the Internet. *Women and Health*, 26, (1997), p. 65–84.
- Shirky, C. The Political Power of Social Media. *Foreign Affairs* 90 (1): 2011, 28-41.
- Siegler, R. S. Microgenetic studies of self-explanations. *In N. Granott & J. Parziale (Eds.), Microdevelopment: Transition processes in development and learning.* (New York: Cambridge University: 2002).
- Suler, J.R. The online disinhibition effect. *CyberPsychology and Behavior*, 7, (2004), 321-326.
- Vinokur, A., & all. Depolarization of attitudes in groups. *Journal of Personality and Social Psychology*, Vol 36(8), (1978), 872-885.
- Taylor, J., & all. The effects of asynchronous computer-mediated group interaction on group processes. *Social Science Computer Review*, 20, (2002). p. 260–274.
- Turkle, S. Whither psychoanalysis in computer culture? *Psychoanalytic Psychology*, 21,. (2004).p. 16–30
- Wilson C., Dunn A. Digital Media in the Egyptian Revolution: Descriptive Analysis from the Tahrir Data Sets, *International Journal of Communication* 5 (2011), p.1248-1272

Worotynec, Z. S. The good, the bad and the ugly: Listserv as support. *CyberPsychology and Behavior*, 3,(2000). p.797–810